مجلة الآداب واللغات- العدد 14 نوفمبر 2008

الصراع الثقافي و البيئي في رواية " ما لا تذروه الرياح " لعرعار محمد العالي

د/عبد القادر شريف بموسى – جامعة تلمسان

لقد طرحت الرواية العربية في المغرب العربي– على غرار الروايات العربية الأخرى – موضوع الصّراع الحضاري بين الشرق والغرب انطلاقا من رؤى متعدّدة الزوايا، واستخدمت أساليب متنوعة وثرية في القصّ والعرض والتصوير، وجعلت من عالم الذكريات التاريخية المنبع العميق والغزير العطاء، كما اتّخذت من أساليب الاسترجاع والتذكّر والتداعي والإسقاط، وسائل ثرية للكشف عن الزوايا المظلمة للصراع الحضاري وتعريته وإبداء وجهات النظر في قضاياه؛ محاولة في الوقت نفسه معرفة كيفية تعايش المستعمِر والمستعمَر، الدخيل المغتصِب وصاحب الأرض المغتصَب، لتُعطينا، في الأخير، إدراكا متكاملا للوضع الاستعماري بكامله والعلاقات السيكو- اجتماعية الّتي يفرضها هذا الوضع خصوصا على أفراد المجتمعات المقهورة والمستعمَرة والمغلوبة على أمرها.

وتُعتبر روايتا " **ما لا تذروه الرياح** " للجزائري عرعار محمد العالي و " **الغربة** " للمغربي عبد الله العروي من هذه الروايات المغاربية اللاّتي اِلْتزمْنَ بهذا الموضوع وهذا الطرح من خلال رؤيتين مختلفتين عن بعضهما البعض.وقبل أن نبدأ بتحليل رواية " ما لا تذروه الرياح " لا بدّ لنا من أن نطرح أهمّ ملاحظة يمكن للمطّلع على تاريخ الاستعمار في المغرب العربي أن يصل إليها دون عناء أو مشقّة، وهي قيام الاستعمار الفرنسي بحرب نفسية فظيعة على الشعوب المغاربية المستعمَرة (تونس – الجزائر – المغرب)، حيث اعتمد فيها السّخرية والحطّ من القيم العربية والإسلامية، ومن نمط الحياة الّتي تعيشها هذه الشعوب. وقد أحدثت هذه الحرب آثارا نفسية عميقة، وخلقت لدى هذه الشعوب شعورا بالاستلاب (الاغتراب) والدونية. وكان الهدف من ذلك، هو تجريدها من كيانها الحضاري، نفسيا أوّلا، وفي المعاش ثانيا، لتسهيل السيطرة عليها اقتصاديا واجتماعيا وفكريا(**1**).

وقد اهتمّت الرواية العربية برصد آثار الاستلاب الحضاري على عملاء السلطة الاستعمارية والّذي هو نتيجة حتمية للصراع الثقافي الذي مُورس على هؤلاء، بين بيئاتهم الشرقية المتخلّفة بثقافتها وبين البيئة الغربية المتقدّمة ثقافيا وتكنولوجيا. فكانت أوّل محاولة يقوم بها هؤلاء باتّجاه الآخرين متمثّلة في التخلّي التدريجي عن المقوّمات الحضارية للمستعمَر كاللغة واللباس، وتزعزع الإيمان الديني واهتزاز القيم الأخلاقية ومحاولة اكتساب مقوّمات جديدة تنتمي إلى حضارة المستعمِر وذلك من أجل التشبّه، بل الذوبان في ذلك المثال الفتّان، صاحب السلطة والسيادة والثراء والجاه(**2**)؛ وهي النتيجة نفسها الّتي ذهب إليها عبد الرحمن ابن خلدون في مقدّمته المشهورة حيث يقول: « إنّ المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسّبب في ذلك أنّ النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه... ولذلك ترى المغلوب يتشبّه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله »(**3**). وهذا كلّه مرتبط بالآثار النفسية العميقة الّتي تركها الاستعمار في نفوس الشعوب المغاربية المستعمَرة.

وقد شهدت القارة الإفريقية كلّها، أوضاعا مماثلة تقريبا، حيث أنّ كلاّ من بلدانها وقعت تحت نفوذ القوات الأجنبية المسيطِرة وتأثيرها، سواء إنكليزية أو فرنسية. كما خضعت أيضا لنظام مزدوج من القيم، أدّى إلى خلق أفراد عجزوا عن التكيّف الثقافي مع مجتمعهم. فأصبح المثقف الإفريقي (والمغاربي على وجه الخصوص) واقعا بين" مثاليات " الغرب و" واقعية "مجتمعه هو،في الوقت نفسه(**4**).

لعلّ أوّل ملاحظة نشير إليها قبل أن نبدأ في التحليل، تتمثّل في أنّ رواية "**ما لا تذروه الرّياح** " للجزائري عرعار محمد العالي، تحاول أن تتناول جانب الصّراع الحضاري بين البيئة الشرقية الجزائرية والبيئة الغربية الفرنسية، إلاّ أنّ هذا الصّراع بين بيئتين مختلفتين لم يكن حقيقيا؛ أو بمعنى آخر لم يُطرح بالحدّة الّتي طرح بها في الرّوايات الحضارية الأخرى. وهذا راجع لضعف مستوى الوعي عند البطل " البشير " في هذه الرّواية من جهة، وانبهاره منذ الطفولة بالحضارة الغربية وكلّ ما تمثّله، كالمدرسة وأستاذه الفرنسي من جهة ثانية وهذا ما تؤكّدُ عليه الرّواية في أحد مقاطعها : « إنّه مبهور بمعلّمه يتفرّس في وجهه، وفي ثيابه، وفي كلّ ما يحيط به، فيجده ساحرا محبّبا إلى نفسه، يودّ أن يقلّده فلا

يستطيع، ويودّ أن يستمتعَ به فلا يقدر، يذهب إلى بيته، فلا يجد مشابها له، ولما يجده في المدرسة »(**5**).

لقد قام الرّوائي ببناء شخصيته الرّئيسة على مستويين: يمثّل المستوى الأوّل ذلك الإجلال والتّقدير اللّذين تُكنّهما شخصية البشير للحضارة الغربية وفكرها؛ والمدرسة ترمز إليهما. أمّا المستوى الثاني فهو ذلك الاحتقار الّذي تُكنُّه لبيئتها الشرقية وأفرادها بل ولوجودها وسط هؤلاء النّاس حيث نجدها في الفصل الثالث من الرّواية تتساءل: « لماذا خلقتُ ؟ لماذا وجدت في هذا العصر وهذا الوضع ؟ هل كان يمكن أن أكون إنسانا آخر، أعيش في قطر آخر مع أناس آخرين ؟ »(**6**).

فتساؤلات كهذه، تُطرح بهذه الطريقة توحي بضياع أكيد وانفصال خطير حدث بين هذه الشخصية، وبين المجتمع الّذي نبتت فيه، وتربّت بين أحضانه، وذلك كلّه هو ما أكّده الروائي بقوله : « ...الصلة انقطعت بينه وبين أهله ووطنه. ولم يعد هناك سوى خيط عنكبوتي رفيع يربطه بها »(**7**). كما أنّ البشير نفسه عبّر عن هذا الضّياع والانفصال عن بيئته من خلال رفض اسم ابنه " باديس " وبتغيير اسمه هو باسم "جاك " وكذلك قوله لأحد الجنود الفرنسيين: « ...أنا لست جزائريا، والجزائر لا تهمّني لقد أصبحت مثلكم فرنسيا، ولا علاقة لي بما هو خارج فرنسا »(**8**).

من هنا نستطيع القول بأنّه لم يكن هناك صراع حقيقي وحاد بين بيئتين مختلفتين، ولكن كان هناك تغلّب بيئة على بيئة أخرى من خلال الفرق الشاسع الموجود بينهما؛ حيث عمد الرّوائي إلى رسم صورة مشوّهة للفرد والبيئة في الجزائر بينما قدّم صورا مشرقة لكلّ ما هو فرنسي. فقدّم لنا أمّ البطل وهي توزّع قطع اللّحم فوق قصعة الكسكسي« ...بيد بخيلة .. حملت القصعة الخشبية بين يديها، ورفعت رأسها قليلا لتتجنّب بوجهها البخار الساخن المتصاعد، فكانت في هذه الصورة تشبه ساحرة شمطاء تحرق البخور في قدرٍ بين يديها، وتقرأ في السحاب المتصاعد آيات الغيب »(**9**). إنّها صورة للأمّ تتناسب مع رؤية ابنها البشير ونفسيته، وهي صورة، دون شكّ مرعبة وبشعة تتنافى والذوق الإنساني(**10**).إلاّ أنّ هذه الصورة تتناسب تناسبا دقيقا مع نفسية البشير الضائعة والّتي لم يعجبها ارتباطها ببيئتها الأصلية المستكينة.

بينما من جهة أخرى يقدّم لنا الرّوائي الفرنسيين وخاصّة " فرانسواز"(زوجة المعمّر صاحب الكلب الّذي عضّ البطل في الصغر) في صورة رائعة، عكس صورة أمّ البطل، حيث وصفها بقوله :

« .. وصبّت الحليب في الفنجان... فانساب هذا صافيا يتصاعد منه البخار بشدّة... بخار ساخن شفّاف، أحاط بوجه فرانسواز، وانساب في خصلات شعرها المقصوص بطريقة عصرية.. غاب في فمها المنعرج قليلا، وفي منخاريها الصغيرين الدقيقين، فجعلها أروع جمالا وأقوى سحرا وفتنة »(**11**). إنّها الوظيفة نفسها الّتي كانت تقوم بها أمّه، و الظواهر نفسها، من حرارة تتصاعد، ومن بخار تقريبا، لكنّ الصورة تغيّرت بدوافع نفسية، كانت تعشّش داخل لاشعور البشير، فجعلته ينحت من جزئيات هذه الوظيفة، وظواهرها صورتين متناقضتين، الأولى نابعة من كره الواقع الجزائري واحتقاره، والثانية كلّها إعجاب وتمجيد للحضارة وللفرد الفرنسيين. وتأتّى كلّ ذلك بسبب توظيفه، في الصورة الأولى: القدر، والبخار، واللحم، والقصعة والخشب والبخور والكسكسي، الّتي كلّها أدوات الاستعمال للواقع المتخلّف؛ وفي الصورة الثانية : الحليب، الفنجان، الانسياب، الصفاء، التصاعد، الشفافية، الخصلات، والجمال، وهي الأدوات الخاصّة بالاستعمال الحضاري (**12**).

وهكذا وجد البشير نفسه – كما أراد له المؤلّف أو الروائي – بين صورتين متناقضتين، فرضهما واقعان مختلفان ماديا ومعنويا. ولعلّ الرّوائي قد قصد بهاتين الصورتين والواقعين المتناقضين والمختلفين معا« تصوير جبهتين غير متكافئتين في الصّراع القائم، وهما الجبهتين نفسهما المتواجدتين على أرضية الواقع: الجزائر المستعمرة بتقاليدها وأعرافها، وجبهة فرنسا الّتي تحاول الهيمنة على الأوضاع وإثبات إيديولوجيتها. لكن هذه الهيمنة لم تكن تخدع إلاّ الفئات الساذجة مثل البشير... والرواية تطرح كلّ هذا انطلاقا من شخصية درجة تثقّفها هي الّتي تحدّد أسلوب مواجهتها للحضارة الغربية وهي مواجهة غير حادّة »(**13**).

ولعلّ هذا اللاّتكافؤ بين البيئتين(الشرقية والغربية)، والواقعين(الجزائري والفرنسي)، هو الّذي دفع بالبشير إلى أن يتنكّر لبيئته وأناسها، ويركن إلى بيئته الغربية الجديدة (باريس) يستمدّ منها العون والتّوجيه، فنراه يردّد ذلك في نفسه بقوله : « آه من هؤلاء النّاس، يا لهم من بؤساء ومساكين، يُنغّصون حياتهم بجهلهم وينغّصون حياة غيرهم... لكن الحمد لله، إنّ لي فرصا عديدة للتخلّص من مضايقتهم ومتاعبهم...إنّ باريس بجانبي تسري عن بالي الهموم وتفتح أبواب الحياة السعيدة أمامي...نعم المدينة أنت يا باريس... »(**14**). لقد انقطعت الصّلة بينه وبين أهله« منذ اليوم الّذي عبر فيه ونزل في تربة فرنسا... »(**15**).

كان هذا الصّراع لصالح الغرب الفرنسي، فقد استُبدلت بيئة البشير وعائلته الشرقيتان ببيئة وعائلة أخريتن غربيتين. فتنكّر لزوجته " ربيعة " وابنه " باديس " اللّذين يذكّرانه بماضيه الشرقي الّذي دفع به إلى العيش في وحدة وعزلة رهيبتين مهّدتا السّبيل للبيئة الغربية كي تتربّع على شخصيته وتدفع بعائلة فرنسية إلى احتلال مكان عائلته القديمة في نفسيته فأصبحت عائلته الجديدة هي "فرانسواز " بدل " ربيعة " زوجته و" بيير " بدل ابنه " باديس ".

وبالرّغم من أنّ هذا الصّراع لم يكن حادّا، وكان في أغلبه لصالح البيئة والثقافة الغربيتين، فإنّ هذا لا يعني بأنّ الجانب الشرقي الإسلامي في شخصية البطل كان غائبا، فكثيرا ما كان هذا الجانب يتمظهر من خلال سلوكات البشير نفسه وردود أفعاله تجاه الحضارة الغربية.

فعلى الرّغم من أنّه سمّى نفسه باسم غربي " جاك "، والّذي قد يوهمنا بأنّه انسلخ كُليّا عن شخصيته وبيئته الأصليتين، فإنّ ذاكرته وشعوره لا يزالان مرتبطين بالعادات والتقاليد، والمفاهيم والقيم الأخلاقية القروية الإسلامية. فبينما هو يتجوّل في شوارع باريس مستطلعا مظاهرها الحضارية من عمارات وطرق... فجأة نجده يثور وينفر من مظهر اجتماعي تمثّل في بائعات الهوى على الأرصفة، بل نجده يستنكر وجود حيّ للرّذيلة في قلب باريس فيقول مخاطبا نفسه:« أهذا الحيّ موجود حقيقة في فرنسا ؟ وفي باريس ؟ ماذا تفعل هذه المجموعة من النساء هنا ؟ إنّه لعار على فرنسا أن يكون في مدنها مثل هذه الأحياء، ومثل هؤلاء النّاس... يا لذلك العار الّذي يتندّى له الجبين... »(**16**).

أوّل ما نلاحظه، هو أنّ البشير الّذي ينفي قيمه وعاداته وماضيه بكلّ ما يحمله نجده – في هذا المونولوج – يقيّم أحد مظاهر الحضارة الغربية بالقيم الإسلامية. وهذا ممّا يدلّ على أنّ التأثير الحضاري مهما بلغ من الشدّة لا يستطيع أن يقضي على جذور الشخص الأخلاقية والفكرية، أو يمحوها محوا تامّا. في هذه اللحظة من الرّواية، تدور بذهنه الصورة المقابلة – لتفسّخ العلاقات في الحضارة الغربية – بالجزائر فيقول : « إنّ شعب الجزائر لا يرضى بأن يشمل مجتمعَهُ على فئات مثل هذه »(**17**)؛ أي فئة النساء الّتي تمارس البغاء. ولعلّ حكمه السابق يجسّد بداية خيبة أمله في حضارة فرنسا، ويعبّر في الوقت نفسه عن الصّراع العميق على مستوى نفسيته بين ما هو روحي وما هو مادي، الروحية النابعة من الضمير الأخلاقي الإسلامي الّذي يرفض الإباحية الجنسية(المادية) الغربية(**18**).

حادثة أخرى تؤكّد وجود هذا الصّراع وعدم اندثار القيم الأخلاقية النابعة من صميم بيئته الشرقية. فقبيل ارتدائه لردائه العسكري الفرنسي أوّل مرّة، دخل الحمّام ليغتسل. ماذا حدث له هناك؟: « يدهش كثيرا حين وجد نفسه عاريا،... لا يستر عورته سوى رداء صغير، تستطيع أيّة نسمة تهبّ في اتجاهه أن ترفعه وتزيله.. فكان يحسّ بالاضطراب بمجرّد التفكير في هذا الافتراض.. ماذا لو رُفع السّتار وانكشف للنّاس عاريا؟ »(**19**).

لا يمكن أن تخفى علينا الدلالة الرمزية للعري الّذي يتخيّله البشير داخل الحمّام. فهو يرمز إلى شعوره بالذنب وبوخز الضمير الشرقي الّذي كان ينتابه من حين لآخر. فهو، بعريه هذا، إنّما يتجرّد من كلّ القيم الوطنية، الّتي كان من الواجب أن يتحلّى بها. فهو بتجرّده هذا إنّما يتنكّر لثقافته الإسلامية الشرقية ويتجرّد منها؛ ولهذا كان يحسّ بوخز الضمير وتأنيبه.

كان الصّراع الحضاري ينتهي في كثير من الأحيان بانهزام الثقافة العربية الإسلامية، تجلّى ذلك في ما حدث للبطل في أحد المرّات، حيث أنكر شخصيته الجزائرية أمام أحد الجنود الجزائريين الّذين أتت بهم فرنسا إلى معسكرات التدريب. بل ووصل به الأمر إلى أن يجد للأسماء الغربية(بيير Pierre – كلود Claude- بول Paul) رنّة حلوة في نفسيته وسحرا خاصّا، بينما لم يُثر فيه اسم العلاّمة " ابن باديس " شيئا.

ومع كلّ هذا الاستحواذ للثقافة الغربية على شخصيته فإنّ البشير لا يزال يعاني من هذا الصّراع بين ثقافتين تتجاذبانه ويتألّم هو لذلك؛ ممّا يوحي بأنّ ثقافته وبيئته الأصليتين لا تزالان تحاولان جذبه إليهما من جديد، حيث : « إنّ مجرّد ذكر اسم من أحد أفراد عائلته، أو مجرّد ذكر اسم يشبه في اللّفظ أحد أسماء أهله، يجعله يتألّم، ويعاني كثيرا. فيرى أحيانا أنّه فعل فعلا أدّا، ويرى أحيانا أخرى أنّه ظلم نفسه وظلم أهله »(**20**). فبتخلّيه عن بيئته، يحسّ بنوع من التأنيب أو بوخز من ضميره الشرقي الّذي ينكر عليه هذا التخلّي والابتعاد عن أصالته.

إنّ ما نلاحظه بعد تحليلنا لهذه الرّواية، هو أنّ الفئة الّتي يمثّلها البشير، مع أنّها فئة غير مثقّفة تمتاز بهشاشة تفكيرها وسطحيته ممّا جعلها عرضة لاكتساح ثقافي غربي سريع؛ إلاّ أنّها لا تزال مع كلّ هذا تحمل في أعماقها بعضا من بيئتها وثقافتها العربية الشرقية، والّتي لم تستطع الحضارة الغربية محوها، فتغتنم الفرصة لتطفو إلى السطح وتحاول أن تجذب البطل إليها من خلال تلك الوخزات والتأنيبات

الشعورية واللاشعورية. هذه الوخزات تجعله يتذكّرُ رسائل والده إليه ومدى الصعوبة والمشقّة الّتي يجدها في كتابته لهذه الرّسائل. « وبمجرّد أن يصل التفكير إلى هذا الحدّ حتّى يشعر بالحزن والكآبة تغمرانه... فيغمض عينيه من الألم، لكي لا يرى شيئا أمامه... »(**21**).

ولعلّ لحادثة المرآة الّتي تتكرّر معه كثيرا، دلالة رمزية معروفة. فحينما كان يقف أمام المرآة، كثيرا ما تتبدّى له صورة والده يؤنّبه على ابتعاده وهجرانه لأهله. فهو يرى صورة والده في المرآة بدل صورته. ولعلّه لا تخفى علينا الدلالة النفسية لصورة الوالد في المرآة، حيث ترمز إلى الجانب الخفيّ من شخصيّتنا، أو بمعنى أصحّ الجانب الخفيّ من شخصية البشير. ذلك الجانب المخبّأ في لاشعوره والّذي حاول التخلّص منه. إنّه شخصيته الشرقية بكلّ ما تحمله من بيئة وأهل وماض. تمثّل هذا الجانب الخفيّ في انعكاس صورة والده في المرآة بدل صورته هو. وصورة الأب في المرآة هنا، ترمز إلى الجانب اللاشعوري الشرقي في شخصية البشير. وهذا يعني من دون شكّ أنّ بيئته الشرقية وثقافتها – بكلّ ما تحملانه من عادات وتقاليد وقيم – لا تزالان قابعتين في لاشعوره تبحثان عن أيّة سانحة للظّهور ومعاودة سيطرتها على شخصيته. فها هو يعترف من خلال معرفته بأنّ « ضميره هو الّذي استيقظ، وأنّ ما كان يراه، إنّما كان خيالا وهميّا، خلقه ضميره فأحياه وكلّمه »(**22**).

لقد اكتشف البطل في الثقافة الغربية الّتي تبنّاها وجعلها سيّدته وموجّهه أنّها ثقافة تؤمن بالفردية إلى أقصى الحدود ولا ترى في الجماعة إلاّ قيودا تكبّل الفرد وتحدّ من حرّيته وقدراته. فهي تقوم على أشلاء الأفراد من خلال دفعهم إلى التنافس فيما بينهم إلى درجة أنّهم يصبحون يعيشون في وحدة مدمّرة تقتلهم وتدفع بهم إلى الأمراض والوساوس. هذا ما اكتشفه البشير في هذه الثقافة الغربية حيث بعد كلّ ما قام به وقدّمه من تضحيات وتنازلات، وجد نفسه في النهاية وحيدا منبوذا « لا يملك تلك الأشياء الخفية الّتي يمتلكها النّاس الآخرون، والّتي يستطيعون بمقتضاها أن يعقدوا العلاقات المتينة مع الأطراف الأخرى، فلا يعيشون في الوحدة أو يفكّرون في اليأس »(**23**).

أدّت هذه التساؤلات والملاحظات كلّها إلى نموّ الصّراع من جديد داخل شخصيته ليرجّح كفّة البيئة الجزائرية الّتي تستيقظ وتحاول جذبه إليها. ولقد تمثّل هذا الانجذاب إلى بيئته الأصلية من خلال ردّ فعله تجاه ما سمعه من " فرانسواز " بخصوص نيّة زوجها المتوفّى "برنار" في تأليف كتاب عن تاريخ الجزائر حيث شجب وأنكر على " برنار " مثل هذا العمل وهذه النيّة فهو يرى أنّه لا يستطيع

فعل ذلك لأنّ الّذي يكتب عن البيئة الجزائرية الشرقية يجب أن يكون واحدا من أفرادها وأبنائها بينما كلّ غريب عنها وعن شعبها« لا يكون قد عاش في الجزائر، وعرف طقسها، واطّلع على أهلها واسكتشف ذخائرها »(**24**)، فإنّ مآله الفشل. بل وصل ردّ فعل البشير على هذه الوقاحة والجرأة على تاريخ بلاده إلى أن يحاول أن يقوم بما أراد أن يقوم به " برنار " ليردّ عليه حيث يقول : « ...إذاً، سأفعل أنا أيضا مثله وأؤلّف كتابا عن فرنسا... وسأحكي فيه كلّ ما وجدت من عيوب وتفاهات وعبث... وسيكون كتابي أصدق من كتاب زوج فرانسواز، الّذي لحسن الحظّ، قد مات ولم يؤلّفه... »(**25**).ففرحته بعدم تمكّن " برنار " من تأليف كتاب عن الجزائر تعني أنّه بدأ يغار على تاريخ بيئته الشّرقية وثقافتها، وهذا يعني من جهة أخرى أنّ كفّة الصّراع بدأت تميل من جديد إلى جانب البيئة الجزائرية.إنّ نموّ ميله إلى بيئته الأصلية دفع به بشكل غريزي إلى الاهتمام بالكتب الّتي تبحث في تاريخ بلاده الجزائر والّتي وجدها في مكتبة فرانسواز، دفع به إلى مطالعتها كلّها فتعرّف على الكثير ممّا كان يجهله من تاريخ بلاده.

لقد أدّت به زيادة وعيه بتاريخ بيئته إلى أن يقيّم من جديد البيئة الغربية – ممثّلة في فرانسواز– ويكشفها على حقيقتها. ففرانسواز« ... تميل إليه كما يميل العالم على مادّته وكما يميل الدّارس على موضوعه...فهي تعاشره لتستطلع منه أسراره... وهي ترضى بتصرّفاته لتكشف سلوكه، فالبشير– كما يشعر– هو بالنسبة لها موضوع للدّراسة والاكتشاف والتجربة ولا شيء آخر... »(**26**).

وهكذا، فمن خلال عودته إلى ثقافته الجزائرية الشرقية وبيئتها بمطالعاته العديدة في تاريخ الجزائر تتبدّى له علاقته بالبيئة الغربية (فرانسواز) على حقيقتها وتتكشّف له. فهي لا تقبله إلاّ لتتّخذه حقل تجارب تمارسها عليه لتكشف خصوصيات المجتمع الجزائري ونقاط ضعفه من خلال الطّبقة الاجتماعية الّتي يمثّلها البشير الّذي جاء ليبحث عن الطّمأنينة والسّعادة والحبّ الحقيقي لكنّه اكتشف أخيرا أنّها « أشياء ثلاثة منعدمة »(**27**).

وجاء نبأ استقلال الجزائر ليزيد من ابتعاده عن كلّ ما له صلة بالحضارة الغربية ويمهّد بذلك لعودته وانضمامه من جديد إلى بيئته الأصلية.

فبهجرانه لفرانسواز إنّما هجر فرنسا. ولا تخفى علينا الدّلالة الرمزية الّتي تربط بين كلمتي "فرنسا " و"فرانسواز " أو بمعنى أصحّ بين " فرانس " " **France** " و" فرانسواز " " **Françoise**" ففرانسواز من هذا الجانب هي تصغير لكلمة " فرانس " أو " فرنسا "، أي بمعنى آخر تمثّل فرانسواز جانبا من فرنسا والبيئة الغربية الّتي هجرها البشير.

وتنتهي الرواية بانهزام البيئة الغربية (فرنسا – فرانسواز) أمام نظيرتها الشرقية (الجزائر– ربيعة – العباسي) وعودة البشير أخيرا إلى أحضان أهله وعائلته بالرغم من ذلك الرّفض الّذي أبدوه له بادئ الأمر، فيصبح بعد ذلك « يزاول مختلف الأعمال في أرضه وأرض أخيه. وكان لا يبخل بجهد، خاصّة وقد أعجبه هواء القرية النّقيّ »(**28**).ولكن، يحقّ لنا أن نطرح سؤالا مهمّا لايمكن لنا أن نتجنّب طرحه في آخر هذا التحليل :

هل انهزمت البيئة الغربية أمام نظيرتها الشرقية(الجزائر) حقّا ؟. وهل عاد البشير إلى بيئته الجزائرية بعد الاستقلال واندمج بها من جديد كما تخبرنا الرواية ؟.

تأتي نهاية هذه الرواية مخيّبة على عكس ما تبدو لنا أوّل وهلة، حيث ينعدم فيها الصدق الفنّي.فإذا كان المؤلّف – بتقديمه لشخصية " البشير" — يهدف إلى تصوير جيل أو طبقة من الجزائريين ضعيفة الوعي الثقافي والوطني واللّذين جعلاها فريسة سهلة لم تقاوم ذلك الصراع الحضاري غير المتكافئ فانقادت للاستعمارالفرنسي وتعاونت معه ضدّ بني جلدتها؛ فإنّه قد أجاد في تصويرها، لكنّه بالمقابل تعثّر تعثّرا ذا أهمية تاريخية حين حاول أن يدمج هذه الطبقة (طبقة [الحركى] أي الخونة أو العملاء، كما كان يطلق عليهم من طرف الجزائريين) من جديد ببيئتها الجزائرية بعد الاستقلال. لأنّ هؤلاء " الحركى" الّذي يمثّلهم البشير لم يندمجوا في المجتمع الجزائري بعد الاستقلال حتّى لو أرادوا ذلك؛ فجُرمهم لايمكن أن يُغتفر. لقد كانت جريمتهم ضد شعب بأسره وليس ضد فرد من أفراده. ولقد أدركوا فظاعة جريمتهم، ولهذا لم يعودوا إلى الجزائر بعد الاستقلال بل بقوا في فرنسا مواطنين فرنسيين من الدرجة الثانية؛ وكيف لهم أن يعودوا وهم يعلمون مسبقا أنّهم سيكون عقابهم على خيانتهم لوطنهم هو الموت حتّى و لو ندموا حقيقة على ما اقترفوه في حقّ وطنهم لأنّ ندمهم ذاك وتوبتهم تلك جاءا متأخرين.لكنّ نهاية الرواية أغفلت هذه الحقيقة التاريخية، مع انّها تبنّت تصوير هذه الطبقة منذ البداية ممثّلة في شخصية البشير.

المراجع المعتمدة في هذه الدراسة:

1 – ينظر:عبد الكريم غلاب – الفكر العربي بين الاستلاب وتأكيد الذات– الدار العربية للكتاب(ليبيا– تونس)– د.ط –1977 – ص .52.

2 – يراجع : الطاهر روابنية – اتجاهات الرواية العربية في بلدان المغرب العربي:« تونس – الجزائر – المغرب » 1945 – 1975 – إشراف د: معروف خزنه دار – رسالة ماجستير في الأدب العربي المعاصر – معهد اللغة والأدب العربي – جامعة الجزائر – 1986/1985 – مخطوط.– ص .231.

3 – ينظر : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون – المقدمة – تحقيق : درويش الجويدي – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت (لبنان) – ط2– سنة 1996 – ص .137.

4 – ينظر : عايدة أديب بامية – تطور الأدب القصصي الجزائري (1925 – 1967) – ترجمة : محمد صقر – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر – د.ط – 1982 – ص .112.

5– عرعار محمد العالي – ما لا تذروه الرياح – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع–الجزائر– دط – 1972– ص .30.

6– المصدر نفسه – ص .48.

7– المصدر نفسه – ص .67.

8– المصدر نفسه – ص .80.

9– المصدر نفسه – ص .8.

10– ينظر : محمد بشير بويجرة– الشخصية في الرواية الجزائرية (1970– 1983)– ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر –د.ط – 1986– ص .134.

11– عرعار محمد العالي – ما لا تذروه الرياح – ص .116.

12– ينظر : محمد بشير بويجرة– الشخصية في الرواية الجزائرية (1970–1983) – مرجع سابق – ص .135.

13– ينظر : عزّ الدين باي – موقف الرواية العربية الجزائرية من الحضارة الغربية – إشراف أ.د: سهير القلماوي وأ.د: عبد المنعم تليمة – رسالة ماجستير في الأدب العربي – كلية الآداب – جامعة القاهرة – 1988 – مخطوط– ص .169.

14– عرعار محمد العالي – ما لا تذروه الرياح – ص .66.

15– المصدر نفسه – ص .67.

16– المصدر نفسه – ص 81 – .82.

17– المصدر نفسه – ص .82.

18– ينظر : عز الدين باي – موقف الرواية العربية الجزائرية من الحضارة الغربية – مرجع سابق – ص 175 – .176.

19– عرعار محمد العالي – ما لا تذروه الرياح – ص 34 – 35.

20– المصدر نفسه – ص 75.

21– المصدر نفسه – ص .85.

22– المصدر نفسه – ص .88.

23– المصدر نفسه – ص .95.

24- المصدر نفسه – ص .137

25- المصدر نفسه – ص .138

26- المصدر نفسه – ص .140

27- المصدر نفسه – ص 140

28- المصدر نفسه – ص 254.